

ظاهرة صراع المناهج في ظل الممارسة النقدية المعاصرة

الدكتور: عبد الله توام

abdallah_touam31@yahoo.com

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:

تعدّ المناهج النقدية الحداثية من أغنى الميادين داخل العلوم الإنسانية، كونها استمدت أدواتها التحليلية من الدراسات اللسانية، ممّا استرعى اهتمامنا أن نجوس في معالم هذه المناهج الحداثية، للتعريف بها، وتبيان أهميتها ومشاكلها في ظل الممارسة النقدية المعاصرة. وموضوع المناهج النقدية من أكثر المجالات الفكرية والمعرفية تحسّسا للتغيرات الحاصلة، بعدما عجز القرن العشرون، وخاصة نصفه الثاني، بعدد رهيب من النظريات والمناهج والأفكار، فشكّل ذلك كله ثورة في الفكر لم يسبق لها مثيل. فأصبحت كلّ مناحي الفكر يعاد فيها النظر، بقراءات نقدية وتطويرية، حملت لواءها أوروبا بالدرجة الأولى، ثم سرعان ما انتشرت إلى مختلف دول العالم بما فيها الوطن العربي، ممّا يقتضي أنواعا من الدراسات والمقاربات النقدية الحداثية التي تختلف في منطلقاتها ومفاهيمها ومصطلحاتها وإجراءاتها التحليلية، منها: البنيوية والأسلوبية، والتداولية، والسيمائية...

الكلمات المفتاحية: المناهج، النقد المعاصر، الممارسة النقدية، صراع المناهج.

مقدمة :

يُعدّ موضوع المناهج النقدية من أكثر المجالات الفكرية والمعرفية تحسّسا للتغيرات الحاصلة، خاصة النصف الثاني من القرن العشرين الذي عجز بعدد رهيب من النظريات والمناهج والأفكار، فشكّل ذلك ثورة في الفكر، وأصبحت كلّ مناحيه يعاد فيها النظر، بقراءات نقدية وتطويرية، حملت لواءها أوروبا بالدرجة الأولى، ثم سرعان ما انتشرت إلى مختلف دول العالم بما فيها الوطن العربي، ممّا يقتضي أنواعا من الدراسات والمقاربات النقدية الحداثية التي تختلف في منطلقاتها ومفاهيمها ومصطلحاتها وإجراءاتها التحليلية، منها: البنيوية والأسلوبية، والتداولية، والسيمائية...

هذه المناهج النقدية الحداثية التي أصبحت من أغنى الميادين داخل العلوم الإنسانية، كونها استمدت أدواتها التحليلية من الدراسات اللسانية، ممّا استرعى اهتمامنا أن نجوس في معالم هذه المناهج الحداثية، للتعريف بها وبأهميتها في الساحة النقدية، وكذا المشاكل والصراعات التي وقعت فيها.

1. تعريف المنهج :

المقصود به، جملة الطرق والأساليب التي يُتوصّل بها إلى نتائج معينة¹، وهو يشمل كلّ المقولات والأدوات التي تدخل في بناء الاستدلالات، وهو يعني "سلسلة العمليات المنظمة التي يهتدي بها الناقد"². وتراكم المعارف والأفكار وقضايا الإبداع، جعلت حضور المنهج ضرورة لا غنى عنها، وبغيا به لا يمكن وصفها وتحليلها وتأويلها³.

وإذا كان المنهج ضرورة لتنظيم رؤية الناقد، فهذا يعني أنّ مختلف الممارسات النقدية تتحرّك وفق طرائق وترسيمات، تمثّل الخصائص المنهجية الجوهرية لانجازاته.

المنهج مجموعة طرائق وتخطيطات صورية تتضمن منطقاً مقنعاً وواضحاً بغية الوصول إلى نتائج مقبولة، لها القدرة على حلّ الإشكاليات، وغايته إضفاء العلمية والموضوعية على الحكم الذي يُتوصل إليه⁴ وقد اعتنى الكثير من الدارسين بقضية المنهج، ممّا يزيد من قيمة المنهج في كلّ دراسة علمية، إلّا أنّه يبقى بحاجة إلى الدراسة الجادة والواعية بالإشكالية وختلف مظاهرها المراد دراستها ومحاولة إيجاد الحلول لها⁵.

2. المنهج النقدي:

لقد أثارت قضية المنهج في الممارسة النقدية، اهتمام الكثير النقاد والدارسين، فيرون أنّه يقترن بالرؤية الدقيقة والشاملة للعملية الأدبية، فبدون منهج ورؤية نقدية فلا يمكن لأية مقارنة نقدية أن تحقّق غايتها المنشودة، وتصبح المقاربة ضرباً من التضليل والخداع، لا الكشف ولا الاستنباط والتأويل، وبالتالي تفقد المقاربة النقدية خاصيتها الأساسية في محاور النص لاستقراء ثوابته ومتغيّراته، وسبر عوالمه⁶ وقد تطوّرت الإبداعات الأدبية وتعدّدت أجناسها وأنواعها. وهذا التطوّر صاحبته ثورة في الأساليب والدراسات والقراءات، فظهرت عدة مناهج تتبنى مبادئ معينة في مقارنة العمل الأدبي، ومنها: المنهج البنيوي، المنهج الأسلوبي، المنهج السيميائي، المنهج التداولي... وغيرها.

3. نشأة المناهج النقدية المعاصرة :

لقد عرفت النظريات اللسانية الغربية في القرن العشرين ردات فعل على المناهج السابقة تجلت في التحريض على دراسة الأدب من الداخل والتركيز على الآثار الأدبية ذاتها، وهكذا بدأ الاتجاه (الألسني) في تحليل النصوص الأدبية⁷، حيث حدثت تطورات ايجابية خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين إذ بدأت المناهج السياقية في الاندثار: كالمنهج التاريخي، والنفسي، والمقارن، والنفسي، والاجتماعي)، لتأخذ مكانها المناهج "النصانية"، التي تنبني على رؤية فكرية للوجود والكون والتاريخ والإنسان فتنتقل من النص، وتعود إليه لتصبّ فيه.

ومنذ النقلة النوعية التي أحدثها الشكلانيون الروس في العقد الثاني من القرن العشرين، بتركيزهم على الاهتمام بالتنظيم اللغوي المميز للنصوص، بحيث ينفصل المعنى الأدبي عن التصورات العقلية المنطقية، أقول منذ تلك النقلة، والنقد لا يهدأ له بال في البحث عن الجديد النقدي. وهكذا رأينا البنيوية وما بعد البنيوية من سيميائية وتأويلية وتفكيكية ونظريات التلقي والقراءة، وكلها تحاول أن تؤسس لعلم دراسة الأدب.

وأصحاب الاتجاهات النقدية الجديدة يرفضون اليوم نسبة النص إلى مبدعه. فلا ينسبونه إلّا إلى نفسه، لأن تحليل النص الأدبي يقتصر على تحليل النصّ وحده، دون التعرض لعلاقته بمبدعه، أو للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أحاطت بمولده، ويحصر همه في تحليل وحدات النصّ، وبنياته الدالة، وعلاقاتها بعضها ببعض. فكانت المناهج النصانية واحداً من أهم المناهج التي لقيت اهتماماً بالغاً من الأدباء والنقاد، إذ تنطلق من محاولة تجاوز المآخذ والنقائص المسجلة على النقد السياقي⁸. وعليه أصبحت القراءة بدلاً من النقد، فلكي تتمّ القراءة لابدّ من حضور طرفيها: النصّ / القارئ، حضوراً حوارياً تفاعلياً، ولا يتمّ هذا الحضور إلّا إذا كان الطرف الأول (النصّ) ثرياً، وكان الطرف الثاني (القارئ) عاشقاً لما يقرأ. وتعدّ المناهج النصانية التي أصبح النقد يستخدمونها مناهج أقلّ سلطة وأخفّ وقعاً على النصّ

الأدبي، وهي تسهم إلى حدّ بعيد في تعميق فهم القارئ للنص من خلال فتح حوار تفاعلي بين النص والقارئ، فيستطيع الأخير أن يتعرّف النص، ويكتشف كنوزه وخباياه وأسراره وطبيعته وعلاقاته، ولعلّ أهمّ شيء ينبغي أن يكون عليه الباحث هو التسلح بمصطلحات ومنهج قبل مقارنة النص تقدّم المقروئية اليوم للقارئ مناهج مختلفة عن السيميولوجية والتفكيكية ونظرية التلقي، وعليه «تحاول الاتجاهات النقدية الجديدة النظر في المؤثرات النصّية السابقة على النص»⁹.

4. أهمية المناهج النقدية:

للمناهج النقدية أهمية وغايات متعددة تتلخص في تقويم :

1. العمل الأدبي من الناحية الفنية، وبيان قيمته الموضوعية، وقيمه الشعورية والتعبيرية، وتعيين مكانه ورتبته وحجم الإضافة التي أضافها إلى التراث الأدبي في لغته بوجه خاص، وفي العالم الأدبي برمته بوجه عام.
2. مواجهة الأثر الأدبي المدروس بالقواعد والأصول الفنية المباشرة، بحيث يتم النظر في نوع هذا الأثر: قصيدة هو أم أقصوصة أم رواية أم ترجمة حياة أم خاطرة أم مقالة أم بحث؟ ثم يتم التطرق إلى النظر في قيمته الشعورية التي يؤدّيها، وقيمه التعبيرية ومدى ما تنطبق على الأصول الفنية لهذا الفن من الأدب.
3. كونها الوسيلة القادرة على تنظيم البحث النقدي من خلال إجراءات محددة، ووفق طرائق خاصة، ولا يسع الناقد الاستغناء عن هذه المناهج، حاضرة أو غائبة فهو بحاجة ماسة إلى «منهج أو أكثر ليستهدي به، إذا ما أراد أن يكون عمله جاداً تؤطره نظرية واضحة المعالم لتحديد له المسالك التي ينبغي له أن يسلكها وتجنّب المزالق والعثرات»¹⁰.

4. تقييم «العمل الأدبي» وتقويمه، في الوقت ذاته، من الناحية الفنية، وبيان قيمته الموضوعية على قدر الإمكان، لأن الذاتية في تقدير العمل الأدبي هي أساس الموضوعية فيه. ولعل من العبث بمكان محاولة تجريد الناقد وهو ينظر إلى العمل الأدبي فيقومه من ذوقه الخاص وميوله النفسية، واستجاباته الذاتية لهذا العمل
5. تعمل على «افتتاح فضاء للخطاب النقدي يتسع للحوار، بين تيارات الخطاب العربي واتجاهاته وميوله»¹¹ وهذا يتضح في انفتاح المناهج النقدية يكمل بعضها الآخر خاصة في الفكر المنطقي والرؤية التحليلية.

5. ظاهرة صراع المناهج في ظل الممارسة النقدية المعاصرة :

تعد ظاهرة صراع المناهج في ظل الممارسة النقدية المعاصرة مشكلة كبرى، لعدم عدم تحديد المنهج النقدي، والمصطلح النقدي، ومن ثم عدم بناء نظرية نقدية عربية أصيلة يتفق عليها جميع النقاد المغاربة والمشاركة.

فالإشكال المطروح: إلى أي مدى تصلح المناهج النقدية الحديثة التي هي اختراع غربي بالأساس لدراسة النص العربي؟ وإلى متى نظلّ نحمل نصوصنا ثقل النظريات الغربية الوافدة علينا، بحكم التبعية والتأخر الذي نعانيه على المستوى الثقافي عموماً؟

فحالة الضعف التي نعيشها على عدد من الصُّعَد تؤكد تبعية التجدد والابتكار في الثقافة عامة والأدب والنقد خاصة. والمثقف الناقد القارئ المدقق المتوازن الموهوب في حساسيته وفطرته وعلمه هو من يصنع الفكر؛ أمّا ما نراه على ساحة الأدب والنقد فهناك أشكال غير قليلة انتهت إلى الاستلاب الإرادي والثقافي؛ وإلى بلبلة فكرية

وسياسية وشللية ودينية وقومية، فكلما اخترع الغرب مصطلحاً ما؛ أو منهجاً طفقنا ننتصر له ونحن نمارس تبعيتنا بلذة مغرية، وشرعنا نعيب على نقادنا القدامى تقصيرهم عما وصلت إليه حركة النقد الحديثة بل كلما ظهرت في الغرب مفاهيم جديدة أقلع نقادنا المحدثون عن السابقة وألغوا ما قاموا به، « فإن المقاييس الغربية. حتى إن فهمت أحسن فهم. لن ينتج تطبيقها على الأدب العربي خيراً. ذلك لأن هذه المقاييس قد استخلصت من دراسة أدب تختلف طبيعته عن طبيعة الأدب العربي اختلافاً عظيماً »¹². وهكذا شرع هؤلاء النقاد الباحثون خاصة المشتغلون في الحقل الأكاديمي ووحدات البحث المختلفة استخدام كل حقول المدارس النقدية الغربية والتغني بمصطلحاتها، وحتى بأصحابها، وكأن نقادنا العرب غابوا عن ساحة النقد تماماً « الأمر الذي يظهر "الحداثية" و"التقدمية" ويخفي حقيقته التي هي "التبعية"، وتحقير الذات »¹³ وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل: إلى أي مدى يمضي بنا هذا السعي وراء النظريات الحديثة في دراسة الأدب؟ وهل صفة الإبداع التي يعرف بها النص الأدبي، هاجس يسعى بنا دائماً إلى عدم الاستقرار والتبعية إلى ما تفرزه الفلسفات والعلوم من افتراضات ونسقطها على أدبنا العربي وفي تحليل النصوص؟

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل هناك العديد من المصطلحات النقدية التي أساسها النقد العربي القديم، ومن ثمة نسبت إلى النقد الغربي، وهذا ما تجاهله النقاد المحدثون الذين اشتغلوا في حقل الشعرية والبنوية والأسلوبية والسميائية والتفكيكية ونظرية التلقي والتداولية. وهذا كله كون لديهم مجموعة من التراكمات والتشوهات النقدية على المستوى النظري والإجرائي في المنهج والمصطلح وحتى في أساليب معالجتهم للنصوص الأدبية وخلق ألوانا من الصراع اللامتناهي بينهم في قراءة النصوص حيث « لحق بالنص الأدبي ضرر محقق من جزاء المغالاة في إخضاعه لمناهج "العلوم الإنسانية" وذلك حين قيدت النظرة إليه بحدود المناهج التي يفسر بها »¹⁴، تلك النصوص على اختلاف أجناسها، وأشكالها تبقى مفتوحة القراءة على أن يختار لها الناقد الحاذق المنهج النقدي الملائم لها، وأن يحسن الاختيار من بين الكم الهائل من الإبداع الأدبي وهذا الاختيار ضرورة وحتمية فرضتها طبيعة النص الأدبي.

6. إشكالية التعامل مع المناهج النقدية المعاصرة :

ينطلق التعامل مع المناهج النقدية المعاصرة من مجموعة أمور أهمها :

1. أنها غربية المنشأ: فهي تنطلق من فلسفات وتراث فكري ونقدي يختلف بشكل أو بآخر عما هو متاح في الثقافة العربية، كما تنطلق من نص غربي وإن كانت تجمعها بالنص العربي قواسم عدة إلا أنه يتميز عنه في طبيعة اللغة والبناء الفني وأساليب التعبير. ففي التفكيكية مثلاً كان " من الصعب تماماً أن نفهم أفكار أحد مؤسسي هذه المدرسة أو الفلسفة أو المنظور مثل جاك دريدا"¹⁵.
2. أنها وصلت متأخرة إلى الساحة النقدية العربية: إن بقاءنا في تعاملنا مع المستجدات الفكرية، وانتظارنا لما ستحققه من نتائج في الغرب، جعلنا نتأخر عن الركب، لهذا نجد القارئ العربي " لم يكتمل أمامه المشهد النقدي المعاصر الخاص بالنظريات النقدية."¹⁶
3. أنها وصلت إلينا متلاحقة وبسرعة خلال فترة وجيزة: فمنذ أن انطلقت النظريات اللسانية على يد العالم السويسري دي سوسير، لم تهدأ الساحة النقدية في أوروبا والعالم، وذهب النقاد في رحلة بحث محمومة لإنتاج

النظرية التي من شأنها أن تكشف أغوار النص الأدبي وتأبى أن تكتفي بالقشور المغلفة له، وهي الرحلة التي بدأها الشكلاونيون الروس في العقد الثاني من القرن العشرين، وهي الآن تحت لواء التداولية وما شاكلها؛ الأمر الذي ساهم في عسر مفاهيمها، وتداخل بعضها في بعض، إلى درجة أن بعضاً ممن يرددون أسسها ونظرياتها، ويسارعون إلى تبنيها، لم يهضمها بالقدر الذي ينبغي له. بل إن "ممثلي ما بعد البنيوية هم بنيويون اكتشفوا خطأ طرائقهم على نحو مفاجئ".¹⁷ وهذا يعني في آخر المطاف أننا حيال حركية تثبت أن المتوصل إليه غير مستقر، وسرعان ما يكتشف بديله أو نقيضه، مما حدا ببعض الدارسين إلى التأكيد على "أن ما بعد الحداثة - مثل التفكيك - إلى زوال، ونحن نتحرك داخل منطقة ما بعد - بعد الحداثة".¹⁸

4. سوء الترجمة التي اعتمدها العرب وسيلة أساسية في تفهم حقيقية هذه المناهج الجديدة، ومحاولة تكييفها مع الأدب العربي، سواء على مستوى وضوح المصطلح أو على مستوى توضيح دقة الإجراء النقدي المستند إلى هذه النظرية أو تلك. ولا شك أن للترجمة دوراً خطيراً في مدى التحكم في زمام المناهج المعاصرة، وفي غياب توحيد في لغة وأسس الترجمة في البلاد العربية، بإمكاننا أن نتوقع حدوث اختلافات في إيصال الأفكار إلى القارئ العربي. وهكذا دخلنا في ما عرف بـ "أزمة المصطلح النقدي" التي تعكس بدورها أزمة في التفكير النقدي، يعيدها عبد السلام المسدي إلى افتقارنا للبعدين النقدي والأصولي، "فأما البعد النقدي فيفسره غلبة المناحي المذهبية في التيارات النقدية الحديثة، وهي ظاهرة يخصص بها الإفراز العقائدي وتشمل بها الرؤية الفردية الواضحة ... أمّا انعدام البعد الأصولي، فلا مرد له إلاّ الحواجز القائمة بين مصادر التفكير عند العرب، ولا سيما المحدثون منهم، وأكبر حازم آثم كاد يطغى على تاريخ الفكر العربي هو ذاك الذي قام بين الفلسفة والنقد الأدبي".¹⁹

خاتمة :

تبقى المناهج النقدية واحدة من القضايا التي أثير حولها الجدل في نقدنا العربي، وإذا كنا لا نرضى بالنقد العاطفي الانطباعي أو الذاتي الذي ساد لفترة طويلة في تراثنا النقدي، فإننا بالمقابل نرى البعض أنّه ليس كل ما تأتي به المناهج النقدية الغربية صالح لأدبنا بالضرورة، هذا إن آمنا بالاختلافات الطبيعية بين الآداب والثقافات والفلسفات.

وإن كانت تصلح بصفة عامة في النقد، وتفيد حين تتخذ منارات ومعالم يستهدى بها، ولكنها تفسد وتضر إذا جعلت قيوداً وحدوداً، فكل قالب محدود هو قيد على الإبداع، والقالب الفني إنما يصنع لضبط النماذج الأدبية والفنية.

الهوامش:

- ¹ طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط3، 2007، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 86.
- ² عبد الله إبراهيم، المتخيل السرد، مقاربات في التناس والروى الدلالية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص 5.
- ³ ينظر المرجع نفسه، ص 6.
- ⁴ ناظم عودة، تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر، ط1، 2009، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ص 17.
- ⁵ ينظر عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ط1، 2005، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 133.

- ⁶ ينظر: عبد الله إبراهيم، المتخيل السري، م.س، ص 6
- ⁷ محمد الجزائري، آلة الكلام النقدية، دراسات في بنائية النص الشعري، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1999، ص 87.
- ⁸ علي زغبنة، مناهج التحليل السيميائي، محاضرات الملتقى الوطني الأول، السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، الجزائر 7-8 نوفمبر 2000، ص 133.
- ⁹ محمد عزّام، النصّ الغائب - تحلّيات التناصّ في الشعر العربي، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 95.
- ¹⁰ مرشد الزبيدي، اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1999، ص 62.
- ¹¹ مصطفى خضر، النقد والخطاب محاولة قراءة في مراجعة نقدية عربية معاصرة، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 58.
- ¹² أحمد حسين جمعة، المسبار في النقد الأدبي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص)، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 73.
- ¹³ محمود الربيعي، في النقد الأدبي، ط1، 2001، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص 261.
- ¹⁴ محمود الربيعي، في النقد الأدبي، م.س، ص 260
- ¹⁵ آرثر أيزنبرجر، النقد الثقافي، تر: وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2003، ص 60 .
- ¹⁶ رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996، ص 10.
- ¹⁷ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁸ آرثر أيزنبرجر، النقد الثقافي، م.س، ص 62
- ¹⁹ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب الدار العربية للكتاب، طبعة 03، دت، ص 18.